



## معنى النكبة\*

تأليف الدكتور قسطنطين زريق

—•••••—

«معنى النكبة» هو كتاب جديد للدكتور قسطنطين زريق وكتاب الدكتور زريق هذا يذكرنا بكتاب سابق له هو وإعنا ينزعان إلى رأي واحد كتاب «الوعي القومي». وليس الكتابان في موضوع واحد وفكرة واحدة، هي الفكرة القومية، التي يرى فيها الدكتور من دون غيرها فكرة الخلاص للشعوب العربية في جميع أقطارها ومع أن كتاب «معنى النكبة» يقوم على الفكرة القومية إلا أنه كتب عن الوضع الحاضر في فلسطين. وعنوان الكتاب يدل على أن الدكتور يعتقد (ونحن نوافق) أن ما وقع في فلسطين كان نكبة بكل ما في هذه الكلمة من معنى. بل هو يقول: إنها جاءت «محنة من أشد ما ابتلى به العرب في تاريخهم الطويل على ما فيه من محن ومأس».

ويتناول الدكتور في كتابه هذا الصغير، الذي ينشره في وقت ملائم، مواضع ندل عناوينها بعض الدلالة على ما فيها؛ فهو يبدأ بالحديث عن «فداحة النكبة» ثم يتحدث في فصل آخر عن «معنى النكبة» في هذا الباب وعن «الحل الأساسي» و«المعالجة القريبة» لدره هذه النكبة التي حلت بالعرب. وكان المؤلف قد كتب قبل أن ينشر هذا الكتاب فصلين أذاعهما قبل ظهور الكتاب: أحدهما عن «الصراع بين المبدأ والقوة في قضية فلسطين» والآخر عنوانه «لماذا مجاهد في فلسطين» وأنت تقرؤ الكتاب كله فتشعر بعزتين أو ثلاث له، تبرز روزاً واضحاً لا غموض فيه: فأما واحدة من هذه العزات فهي أن الكتاب يعبر تمبيراً تاماً عما يجول في خاطر الناس بعد ما وقع في فلسطين. فالناس بعد هذا الذي وقع تبليت أفكارهم وتحيروا ماذا يقولون. وقد عبر المؤلف تمبيراً صادقاً والم به لإماماً موثقاً. وميزة أخرى للكتاب هي أنه ينظم البحث تنظيمًا يدل على فكر منظم وعقل مدبر. وقد عرف هذا عن الدكتور زريق

(\*) التي حلت بفلسطين

في تأليفه، وبطل ما عرف عنه صحيحاً في هذا الكتاب الصغير. وميزة ثالثة للكتاب نوردتها لأننا نتحدث عنه لا لأنها كبيرة الأهمية وعن الموضوع في التعبير، والجمل الطيب في الأسلوب، والجدة في الأداء؛ صفات تستهويك حين تطالع فصول الكتاب فتكسبه عند طامة القراءة قوة على إبلاغ الرأي الذي يراه المؤلف إلى ذهن القارئ في يسر وإمتاع. وعند ما يتحدث الدكتور زريق عن «معنى النكبة» التي حلت بالعرب في قضية فلسطين، يقول شيئاً يجد القارئ المادي صموية في إدراكه، ولكنه صحيح وإن كان مطبوعاً بالطابع النظري الخوض. فالدكتور يقول: إن النكبة تقاس بتقدير تأثيرها في تفتية الشعب العربي. فإن هي أرهقت هذه النفسية وشتل قدرتها على الصمود في وجه التصف والإغراء، وإن هي مكنت لقوى الرجعية العربية من السيطرة وانهمزمت أمام هذه القوى، وإن هي لم تثر مواطن الضعف ولم تحتفظ بتناصر القوة فقد وقعت كنكبة، وإن كان الأمر على العكس من ذلك فلم يرهق النفس العربية ولم تشل قدرتها على الصمود في وجه الظلم ولم تهين أمام قوى الرجعية والإغراء، عادت وكأنها ليست نكبة وإنما كانت مناسبة لتنقية جوهر الأمة العربية وبلورة كياناتها. وهذا كله صحيح وإن لم أشمر أن المؤلف الكريم وفق كل صرة إلى وصف الطريقة التي تمكننا من أن نصمد لمساحل بنا، وأن تخرج منه بعبارة المستقبلي بحيث يخرج كما قال «من العسر يسر ومن النكبة بدور ظهر» وسأبين ذلك عن قريب؛ لأنني أحب في هذه اللحظة أن أتحدث عن أهم ما تناوله الكتاب، وأهم ما جاء به في نظري هو الحل الذي يراه للنكبة التي وقعت بفلسطين، وهو يقسم الحل إلى قسمين: أحدهما «المعالجة القريبة» والآخر «الحل الأساسي» وكلا الموضوعين هام تطالعه في شغف وسرعة وهو يرى أن المعالجة القريبة تقوم على أركان خمسة: هي تقوية الإحساس بالخطر، وتجنيد قوى الأمة الحربية بكاملها، وتحقيق أكبر قسط من التوحيد الممكن بين الدول العربية في ميادين الحرب والسياسة والاقتصاد وسواها. والركن الرابع هو إشراك القوى الشعبية في النضال، أي لا يقتصر الجهاد على الحكومات والجيوش النظامية، والركن الخامس في الجهاد العربي لحفظ فلسطين هو استمداد العرب للمساومة، وللتضحية ببعض المصالح لدره الخطر الأكبر

هذه هي الأركان الخمسة عند الدكتور زريق للمعالجة القريبة

السلاح المأخوذ من أسلحة المواجهة القريبة يستطيع العرب أن يفيدوا منه منذ الآن، إنه لا يحتاج إلى مثل ما يحتاج إليه الأسلحة الأخرى من استمداد طويل ووقت بعيد، ففي الحرب اليوم فئة من الساسة المحنكين الذين يفهمون التيارات السياسية العالمية وما يحمل في طواياها من مغازم قادرون إذا أخلصوا أن يوجهوا شعوبهم معهم إلى الناحية التي يجدون فيها الخير لهم.

وهنا أستطيع أن أوضح لك الخطأ الكبير الذي ارتكبه الدكتور زريق حين تحدث عن أحد أركان المواجهة القريبة وهو « المساومة »، وحين شرح لقرانه معنى كلمة « تقديم » التي وصف بها الكيان العربي الذي يريد. قال الدكتور إن الخطر الصهيوني لا يرد إلا كياناً عربياً قوياً متحد تقديمي. وهو حين أتعمل هذه الصفة (تقديمي) يقول « إن قومييننا إذا أرادوا أن يحاربوا الشيوعية حقاً فسبيلهم الوحيد أن تكون قوميتهم مجاربة لقوى الزمان (ص ٤٨) فحاربة الشيوعية عند الدكتور إذن إرادة صميمة يبدل الناس على السبيل الوحيد إليها. ولكنه حين تحدث عن أركان الجهاد العربي لحفظ فلسطين تكلم عن استمداد العرب المساومة مع الدول الأخرى على أساس تبادل المصالح والمنافع. وهذا حق في نظرنا. فإرا أراد أن يبسط معنا للقارئ قال: « لا نحالف مثلاً الدول الديمقراطية على الشيوعية ونضطهد الأحزاب اليسارية في بلادنا لوجه الله وجرباً مع الصداقة أو مجرد التخاذل » إن الاستمداد المساومة على الحقوق المتبادلة عنصرها من عناصر الجهاد العربي كما ذكرنا والعرب يفتقرون إلى استخدامه ككل الانتقام، والعالم الآن منقسم إلى قسمين فقط: الديمقراطية والشيوعية. فإذا أتى الدكتور قابلية المساومة مع الشيوعية لأننا يجب أن نحاربها كما سبق، فلم يبق معنا من طرف مساومة إلا الديمقراطية، فإذا أدركت الديمقراطية أن المساومة لا تكون إلا معها بكل معنى المساومة وتمنعت الديمقراطية معنا فأخذت منا درن أن تأخذ منها، وهذا هو السر الأكبر للضعف في موضوع فلسطين في الوقت الحاضر، والدكتور لا يخلصنا منه، وإن أتى أن المؤلف فعل ذلك عن نية حسنة.

وبعد فقد قال الدكتور في مقدمة كتابه « است أدعى أتى في هذه الدراسة قد « اخترعت البارود » وإنما هي محاولة لتصفية تفكيرى في هذه الأزمة الخائفة ». والحق أن الكتاب لا بد وأن يكون قد أحدث سفاء في التفكير عند القراء الذين طالعه في الوقت الذي يجب أن يطالعه فيه. والفضل في ذلك يعود إلى المؤلف الكريم.

لقضية فلسطين، وهو يشرح كل واحد من هذه الأركان شرحاً وافياً لا مجال للتخوض فيه ههنا، وأنا أتق على كل حال أن القارئ الكريم سيرف شيئاً من المقصود بهذه الأركان من مجرد ذكر عناوينها، وذلك انتفاة الناس السامة الآن بقضية فلسطين وبقضايا بلادهم. ولا أنمرض لأى واحد من هذه الأركان اللهم إلا لركن المساومة السياسية هذه، التي يتحدث عنها الدكتور، على أساس موجب أشد الوجوب للنقد، وصاوضح لك ذلك عما قريب.

أما المواجهة البعيدة لقضية فلسطين، أو الحل الأساسى فيطلب عند المؤلف « حرباً مديدة الأتق بعودة الأجل » وتبدلاً « أساسياً في الوضع العربي، وانقلاباً تاماً في أساليب تفكيرنا وعملنا وحياتنا بكاملها » إنه يتطلب « كياناً عربياً قومياً متحداً تقدمياً » وإنشاء هذا الكيان هو الركن الأول للجهاد العربي البعيد ثم يعنى الأستاذ فيشرح كل واحدة من هذه الصفات التي يجب أن يتصف بها الكيان العربي. وهو يلاحظ أثناء هذا الشرح أن أساليب تفكيرنا ما تزال عتيقة وأتنا لا نساير الزمن فتأخذ مما في الحضارات الإنسانية من قيم عقلية وروحية.

ولو أردنا تقريب تسمى الحل لقضية فلسطين من أذهان القارئ الكريم لقلنا إن الدكتور زريق يضع أركاناً خمسة لسكل من الحلين القريب والبعيد لقضية فلسطين. ومجموع ما يريد من كلا الحلين يتلخص في خلق أمة عربية على طراز الأمم القريبة. ويشمل ذلك القوة العسكرية والقوة العلمية والخلفية والاقتصادية وبعض هذه القوى يحتاج إنشاؤه إلى زمن طويل. والذي أراه أن أعجل ما يمكن أن يأتي بنتيجة من آراء الدكتور هو ما أسماه « المساومة » فالواقع أن هذا سلاح ماض جداً في أيدي العرب إذا سدده إلى ناحية أساب الهدف وأسمى.

فالرب يشبهون في حالم السيامى الحاضر وضع اليهود بين حزبي الجهوريين والديمقراطيين في أميركا أو وضع حزب الأحرار بين حزبي العمال واليهود في بريطانيا — إذا مالوا بتفاهم مهما هارت شأنه على ناحية من ناحيتي الكتلتين العالميتين اليوم، رجحت كفته بتفاهم وانتصر على خصمه. وهذا السلاح المأخوذ لا يقتضى إلا اتفاق الرأى بين العرب في جميع أقطارهم على الناحية التي يرجحونها. وهم غير مضطرين حين يرجحون كفة أن يظلموا على موافقهم زمناً طويلاً. بل الواجب يقضى أن يعدلوا موافقهم بحسب الظروف تمديلاً بلائم مصالحهم كأمة. وهذا